خليل مطران

١٨٧١ - ١٩٤٩

يجمع العالم العربي بأقوال نجم لامع في سماء الشعر والبيان، شغل الناس أكثر من نصف قرن بشعره الطريف الجديد.

ولد خليل مطران سنة ١٨٧١ في بعلبك ونشأ تحت سماء سورية بين أوديتها الخضراء وجبالها البيضاء وبحرها الصافي وأمواجه المتدفقة وصخوره الناتئة، فكان لذلك كله الأثر البيّن في صقل خياله وتغذية روحه ووجدانه بالعواطف النبيلة والجمال العبقري. ثم قدم مصر سنة ١٨٩٢ وهو ما يزال في فورة الشباب فشب وترعرع بين ربوع النيل وبين آثار المدنية القديمة وأهرام مصر الخالدة، فهو شاعر بعلبك والأهرام، تغنّى بوطنيه في قصائده الرائعة. وهو إذ يذكر بعلبك وآثارها، إنما يذكر أيام الطفولة المرحة والحياة الطروبة، ويحنّ إلى وطنه الأول ومسقط رأسه. استمع إليه في قصيدة «بعلبك» يصف آثارها وقلعتها ويتذكر طفولته:

إيه آثار بعلبك سلام ... بعد طول النوى وبُعد المزار!
ذكريني طفولتي وأعيدي ... رسم عهد عن أعيني متوارى
يوم أمشي على الطلول الدواجي ... لا افتراراً فيهنّ إلا افتراري
تركتا بينهن غراً لعوباً ... لاهياً عن تبصر واعتبار ...

إلى آخر هذه الأبيات الوجدانية الرقيقة.

وهو إذ يتغنى بمصر وطنه الثاني، إنما يتغنى بمجدها التليد وأهرامها المجيدة ونيلها السعيد ومعالمها الصافية ويثني عليها وعلى كرم ضيافتها ونبل أخلاق شعبها العريق. استمع إليه يقول:

يا مصر أنت الأهل والوطن ... وحنى على الأرواح مؤتمن
أي الديار كمصر ما برحت ... روضاً بها يتقيد الظعن
فيها الصفاء وما به كدر ... فيها السماء وما بها غضن
مصر التي أخلاق أمتها ... زهر سقاه العارض الهتن
فهي التي عرفت مروءتها ... أم ويعرف مجدها الزمن

ويقول من قصيدة «تحية الشام لمصر»:

تتناقل الألسن في نواحي المصلحة ويتشدق به صغار الموظفين، فما لبث أن بلغ مسمع المدير العام. وذعر المدير للخبر وعجب أن يرتدع في هذه الحأة موظف في المصلحة ذو رأي ومكانة. وتحدث إليك بالأمر فما استطعت أن تنكر وأمامك الموظف الشاب يرمقك بنظرات يتطاير الشرر من خلالها. ورفق بك المدير فأرغمك على أن تترك المصلحة كلها في أقرب وقت.

ولفظتك المصلحة لتلقى بك في زاوية من وزارة المالية وإن رائحة النتن لتفوح من بين حنازيك، وأصبحت مفتشاً بالمالية. والمفتش في رأي الحكومة موظف واهي الهمة أو وضيع الكرامة لا يستطيع أن ينهض بعمل ولكنه يتحاص عليها أن تقذف به إلى الشارع لأن القانون يحميه، وهو — دائماً — يكتب التقارير لتلقى في سلة المهملات.

* * *

والآن، يا صاحبي، لقد انتلت كرامتك ولوثت الأقذار ذكرك من أثر الإمعان على الخمر، ولكنك ما تزال تأنس إلى التراب وتطمئن إلى الكأس، فمتى يصرك عن حاجات البيت فهذه زوجك تضيق بك لأنك تنفق جُل مالك في التافه الوضيع وتتفضى من رغبات نفسها، ولأنك — دائماً — محطم الأعصاب تائر النفس كثير الشغب في المنزل وفي الديوان وفي الشارع. وإن أولادك ليفتقدون عطفك أحوج ما يكونون إليه، ويفتقدون مالك حين يحسون الضياع والشقوة وإن شهواتهم لتدفعهم إلى اللباس الأنيق والطعام الشهي وإلى الحلوى واللعب فلا يجدون شيئاً منها، ويفتقدون عقلك حين تترنح في فناء الخمر من أثر الخمر، ويفتقدون الهدوء حين يعج المنزل برفاق السوء.

فهل تستشعر — يا صاحبي — اللذة في الكأس أو تلمس السعادة في الشراب؟ إن قلبي يرثي لحالتك وإن نفسي تساقط حسرات لجهلك، لأنني عرفتك يوم أن كنت فتى متوقد الذكاء راجح العقل قوي الحجة تفور شباباً وقوة وجمالاً ...

كامل محمود حبيب

فيا أيها الوطنان إني وسيط العقد في هذا النظام
ببلادي لا يزال هواك مني كما كان الهوى قبل النظام

* * *

قدم خليل مطران مصر وعرف صاحب الأهرام واشتغل مدة في تحريرها، ثم أصدر جريدة الجوائب، وأنشأ أيضاً المجلة المصرية، واشترك في تحرير المؤيد واللواء، وناصر المرحوم مصطفى كامل في جهاده المجيد، وأتقن دراسة الأدب العربي قديمه وحديثه، كما أتقن الأدب الفرنسي مما أثر في نزعته الثورية إلى التجديد في الشعر إلى أبعد حدود التأثير. ولم تشغله صناعة الأدب عن أعمال ليس لها صلة بالأدب، وهو في أثناء ذلك كله لم ينقطع عن نظم الشعر والتأليف المسرحي وترجمة المسرحيات. وقد تولى إدارة الفرقة القومية زهاء سبع سنوات.

ولا يهمنا في دراسة خليل مطران تلك الدراسة العاجلة إلا الناحية الشعرية منه وإن كانت آثاره جميعاً جديرة بالدراسة العميقة. خليل مطران صاحب مدرسة حديثة في الشعر العربي، فهو أول شاعر ثار على أساليب المدرسة التقليدية، وجاهر بمذهبه الجديد في الشعر ورأى أنه المذهب الذي سيسود في شعر المستقبل حينما أصدر ديوانه الأول؛ لأن هذا الشعر كما قال «شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً».

نهج خليل مطران نهجاً جديداً في نظم الشعر ونادى بمذهبه حيث قال «اللغة غير التصور والرأي. وإن خطة العرب في الشعر لا يجب حتماً أن تكون خطتنا، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا؛ ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم، وإن كان مفرغاً في قوالبهم محتذياً مذاهبهم اللفظية». بهذا الرأي الجريء الغريب نادى خليل مطران ودعا إليه؛ بينما كان شعراء مصر في ذلك الحين يتورطون في شعر المديح والتهاني يرفعونه إلى السدة السلية والأعتاب السنية

ومن هنا كان شعر مطران ومذهبه في النظم نقطة تحوُّل في تاريخ الشعر العربي وانقلاباً بعيد المدى، فهو يحق شاعر العربية الإبداعي، يمر شعره على أوتار القلوب فيحركها ويهز الوجدان ويثير العواطف.

«فمطران أول من عمل على إخراج الشعر العربي من نطاق الذاتية والفردية إلى باحة الموضوعية وميدان الحياة. وهو أول رائد خرج على الطريقة الاتباعية الكلاسيكية إلى الطريقة الابتداعية الرومانتيكية) وإن ساير الاتباعية غالباً في الأسلوب. وهو أول من أثر في شعراء الشرق سواء باتجاهاته أو شاعريته». ولعل السبب في ثورة مطران على الطريقة التقليدية في نظم الشعر هو أن هذه الطريقة وذلك اللون من الشعر التقليدي أصبح لا يعبر عن العواطف تعبيراً صادقاً ولا عما يعتلج في النفس من أحاسيس، وزاده إيماناً بفشل ثقافته الأجنبية ولا سيما في الآداب الفرنسية وهي أغنى الآداب الأوربية بالشعر العاطفي الوجداني ذي النزعة الإبداعية. لذلك لم يكن غريباً أن ينبذ مطران المدرسة القديمة العتيدة ولها أنصار كثيرون في مصر، ويأخذ بالمدرسة الحديثة في نظم الشعر. ونلاحظ هنا أن كثيراً من الشعراء الذين أخذوا بهذه المدرسة الحديثة ونهجوا نهج مطران في الشعر بالغوا إلى أبعد حدود المبالغة وأصبح الواحد منهم على حد قول محب الدين الخطيب: «يظل يومه يسطو على منظومات الإفرنج يستل منها معانيها الغريبة من الأذواق العربية فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلمن بعضها بعضاً!! فلا يفهم منها القارئ العربي إلا بقدر ما أفهم أنا من الصيني!!» أما خليل مطران فهو وإن تأثر بالآداب الافرنجية لا يزال عربياً خالصاً في أسلوبه وتعبيره وصيغه، وعمل ما أدخله على الطريقة التقليدية في الشعر العربي هو التجديد الطريف في المعاني والأخيلة والموضوع. وقد ذكرنا أن مطراناً نفسه قال: «... وجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا وإن كان مفرغاً في قوالبهم (أي قوالب العرب) محتذياً مذاهبهم اللفظية».

فمطران إذن عرف كيف يستفيد من اللغات الأجنبية دون تقليد، وأن ينهج نهج قدماء العرب دون تقييد، فاحتفظ بصيغة العرب في التعبير، وأدخل أساليب الافرنج في التأليف والتفكير.

ومن هنا نجد الفرق الشاسع بين هؤلاء الشعراء الذين يدعون «التجديد» وبين إمام المجددين خليل مطران.

وقد أدخل مطران على الشعر العربي لوناً طريفاً من ألوان التجديد وهو الشعر القصصي. وقد ثار البحث بين الأدباء عما إذا كان

للعرب شـعر قصصي أم لا . وأخذوا يتلمسون ذلك اللون في الشعر العربي القديم ؛ ولكنا نستطيع أن نجزم أنه قبل مطران لم يكن للشعر القصصي مكان في العربية . فمطران أول شاعر نظم شعراً قصصياً بالمعنى المعروف . ولا شك أن هذه النزعة في شعر مطران تساير نزعته الإبداعية في سائر فنون الشعر التي نظم فيها . ولعل من روائع هذه القصص الشعرية قصيدة « الجنين الشهيد » التي لا مثيل لها في الشعر العربي ، وقصيدته « فتاة الجبل الأسود » و « العصفور » و « فنجان قهوة » و « تيرون » التي تعد من عيون الشعر القصصي .

ومطران واعي في قصصه الشعري لا يحلق به الخيال في آفاق مفقودة بيننا في الحياة العادية ، ولكنه يستلهم الحوادث المألوفة لنا في الحياة الواقعية ويفرغها في قالب قصصي رائع بديع .

وقصصه الشعرية تستأهل دراسة مستفيضة منفصلة عن باقي شعره ؛ ذلك بأن القصص هو العنصر الفذ الذي قامت عليه شاعرية مطران .

وتحليل مطران « تجارب شعرية » رائعة إمتاز بها على المعاصرين من شعراء العصر الحديث ، نذكر من هذه التجارب الشعرية قصيدته الرائعة « الساء » وقصيدته « الحمامتان » وقصيدته « الشمس والنبتة » وقصيدته « بدري وبدر السماء » التي خلع فيها على أحداث الطبيعة سمات البشرية .

ويلاحظ في شعر مطران ظاهرة واضحة هي أنه لا يعنى بالبيت منفرداً كما هي عادة العرب حيث « ينفرد كل بيت من القصيدة بإفادته في تركيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وعما بعده » وإنما يعنى مطران بالوحدة الفنية في القصيد كله ، ولذلك نشعر بانسجام تام وتسلسل بديع إذا قرأنا له قصيدة من قصائده الوجدانية جملة واحدة بينما يفسد ذلك تجزئة القصيدة كما تنال من الوحدة الفنية فيه .

أما من الخيال عند مطران فإن نشأته بين الخضرة والماء والصخور في ربوع الشام وجبال لبنان ، ثم في ربوع الوادي وربى الأهرام ، فتق خياله عن معان عبقرية رائعة . استمع إليه من قصيدة يستقبل بها الشام :

هذي رؤوس القمم الشماء تواضعاً بالقبة الزرقاء
تواضع الهام البيضاء روائع الناطق الخضراء
ياحسن هذي الربلة الوعساء وهـذه الأودية النساء
وهـذه المنازل الحراء راقية معارج العلياء
وهذه الخطوط في البيداء كأنها أسرة العذراء
وذلك التدبيج في الصحراء من كل رسم باهر للرائي
مشوش النظام في جلاء منتسق بالحسن والرواء
وهـذه المياه في الصفاء آناً وفي الإزباد والإرغاء
تنساب في الروض على التراء خفية ظاهرة اللألاء

وهذه القصيدة كما يقول الأستاذ الدكتور إسماعيل أدهم في بحثه القيم عن مطران « تلمس فيها طبيعة الشام وتستحضر في ذهنك صورة محسوسة بين يديك منها » . وكما يقول المنفلوطي الكاتب الوجداني « يكاد يلمس خياله ويسمعك رنين أوتار قلبه » . وذلك لأن نفس الشاعر كالمرآة الحساسة ينطبع عليها كل ما يمر بها ولذلك كان الخليل شاعر الشعور والخيال .

ومن روائع شعره قوله في قصيدته الخالدة « الساء » :

يا للغروب وما به من عبرة للمستهام وعبرة للرائي
أو ليس نزعاً للنهار ومصرعة للشمس بين جنازة الأضواء !
والشمس في شفق يسيل نضاره فوق العقيق على ذرى سوداء
صرت خلال غمامتين تحدرا وتطرت كالدمعة الحراء !

وهذا من رائع الوصف ورائق الشعر العربي :

ويجمل القول في مطران أنه أول شاعر إبداعي عرفته العربية . وقد أثر إلى أبعد حدود التأثير في الشعر العربي بمدرسته الحديثة التي أخلص لها وغذاها بروائع شعره الإبداعي والقصصي فالتف حوله جمهور من شباب الشعراء والأمل معقود عليهم في أن يحملوا مشعل الإبداعية في مصر بعد أن رفعته يد مطران نصف قرن تقريباً .

رابح لطفي جمعة

مراجع البحث :

بحث الأستاذ الدكتور إسماعيل أدهم عن « خليل مطران شاعر الإبداعية » في المقتطف سنة ١٩٣٩ .
شعراء مصر للأستاذ عباس محمود العقاد .
كتاب « نقد الشعر المعاصر » للأستاذ مصطفى الحرفي .
كتاب « رواد الشعر الحديث » للأستاذ مختار الوكيل
مقال للأستاذ سلامة موسى عن خليل مطران في مجلة الهلال .
مجلة الزهور .
ديوان الخليل .
كتاب « شوقي » للأمير شكيب أرسلان .